المبحث الثاني

مشهد اقتحام الـخدر

نلاحظُ في لوحة الشِّعر الأندلسيّ ، التي يتناول فيها الشَّاعرُ صورةَ المرأةِ ووصفَ علاقتِه بها ، مشاهدَ يُصوِّر فيها اقتحام الخدر ، وتجاوز الأهوال والمعشر ، وكيف أتى والحيُّ نيامٌ ليقتنص فرصةَ لقاء المحبوبة ، وكيف تُراعُ منه وعليه ، وما إلى ذلك من تفصيلاتٍ يقتضيها هذا المشهد ، والشَّاعرُ الأندلسيّ يحتذي في ذلك دون قصدٍ منه ، أو بقصدٍ ، طريقة البدويِّ في رسم هذه اللَّوحةِ ، وظلالها ، ومغزاها أيضاً ، ومن أهمِّ عناصر هذا المشهد : أنَّ المحبوبةَ ممنَّعةٌ من قوم أشدَّاء يحمونها ، ويخافون عليها ، ويقومون على حراستها ، وهي سُنَّةٌ مُنحدِرةٌ في الشِّعر من قول امرئ القيس : (وبيضةِ خدرٍ لا يُرام خباؤها) [1].

وقوله أيضاً : (تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشرا)[2]، وقد أخذ الشعراء الأندلسيُّون هذا المعنى في صورة الخدر من امرئ القيس ومن بَعـده من الشُّعراء ، وأكثروا من وصف تفاصيل هذه الصُّورة ، وبالغوا ، فجعلوا دون المحبوبة أهوالاً ومهالك ، كل هذا لمغزى في الشِّعر ـ سنشير إليه لاحقاً بإذن الله ـ .

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٣٥ .

(٢) المرجع السَّابق ، ص٣٦ .

يقول ابن شُهَيْد (ت : سنة ٤٢٥هـ - ١٠٤٣م) ذاكراً هذه المنعة[١] :

إذا رامَهَا ذو حاجةٍ صدَّ وجهُهُ ظُبا[٢] البَاتراتِ والوشيجُ[٣] المكسَّرُ

أمَّا ابن الحدَّاد ، فيمعنُ في وصفٍ لتفاصيل هذا المشهد في قصيدة بدويَّة يبدؤها بـ[٤] : (عُجْ بالحِمى حيثُ الغياضُ العينُ)

يقول[٥] :

حيثُ القبابُ الحمرُ ساميةُ الذُّرى والأغوجيَّاتُ[٦] الجيادُ صُفُون[٧]

والسمهريَّةُ[٨] كالنهودِ نواهدٌ والمشرفيَّةُ[٩] في الجفونِ جفونُ

أُفقٌ إذا ما رُمتَ لحظَ شموسِه صدَّتْكَ للنَّقعِ المُثارِ دُجونُ[١٠]

يغشاكَ من دونِ الغزالِ ضُبارمٌ[١١] فيه ومن قبل الكناسِ[١٢] عرينُ[١٣]

أمَّا عند (يوسفُ الثالث) فالمحبوبةُ دونها كلُّ فارس ولكلِّ فارسٍ حماةٌ من أهلٍ ومعشر ، فهي محميَّةٌ ، وحُماتُها محميُّون ، وكأنَّ حولها جيشاً جرَّاراً ،

---

(١) ديوان ابن شُهيد الأندلسي ورسائله ، تحقيق : محيي الدين أديب ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، صيدا ، ط . الأولى ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، ص٧٣ .

(٢) الظبا : حدُّ السيف والسنان وغيره ، اللِّسان : مادة (ظبا) .

(٣) الوشيج : شجر الرِّماح ، اللِّسان : مادة (وشج) .

(٤) ديوان ابن الحدَّاد ، ص٢٦٥ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٢٦٦ .

(٦) الأعوجيات : خيلٌ منسوبة إلى أعوج ، هو فرسٌ لبني هلال تنسبُ الخيل الكرامُ إليه ، اللِّسان : مادة (عوج) .

(٧) الصافن من الخيل : الذي قلب أحد حوافره ، وقام على ثلاثِ قوائم ، اللِّسان : مادة (صفن) .

(٨) السمهريَّة : الرِّماح الصلبة ، اللِّسان : مادة (سمهر) .

(٩) المشرفية : سيوف منسوبة إلى مشارف من أرض اليمن ، اللِّسان : مادة (شرف) .

(١٠) الدُّجنَّة : الظلمة ، اللِّسان : مادة (دجن) .

(١١) ضُبارم : أسد ، اللِّسان : مادة (ضبر) .

(١٢) الكناس : مولج الوحش من الظباء ، اللِّسان : مادة (كنس) .

(١٣) العرين : مأوى الأسد ، اللِّسان : مادة (عرن) .

يقول[1] :

مـمـنَّعةٌ من دونـــها كـلُّ فـارسٍ لهُ مـن حماةِ السَّفحِ أهـلٌ ومعشـرُ
يـردُّونَ عنـها اللَّحـظَ قبـل التفاتِـه ويلقونَ فيهـا المـوتَ والمـوتُ أحـرُ
فـلا تصـدرُ الغـاراتُ إلاَّ ووردُهَـا نجيعٌ وفجـرُ اليـومِ نـهـرٌ مفجَّـرُ

لقد وصف الشَّاعرُ الأندلسيُ هذه المنعة وَصْفَه مشهداً من مشاهد الحرب والمعركة ، وميدان قتال يحتشد فيه الفرسان ، وتُتَّخذ عدّة الحرب ويتعرَّض فيه كل من يقترب من المحبوبة لمخاطر قد تكلِّفه حياتُه ، ويبالغُ ابن هانئ أيضاً في هذا المعنى ، حتى يجعل طيفَها محجوباً ، والرَّقابةَ مشدَّدةً حتّى على اللَّحظاتِ والنظر ، تحفُّ بها الرِّماحُ والخيول ، والجيوشُ المدرَّعةُ ، يقول[2]:

وغـدت ممنَّعـةَ القبـابِ كأنَّهـا بـين الحجـال ، فريـدةٌ عصـماءُ
حُجبـتْ ويحجـب طيفُهـا فكأنَّمـا منـهم علـى لحظاتهـا رُقبـاءُ
مـا بانـةُ الـوادي تَثَنَّـى خُوطُهـا لكنَّهـا اليزنيَّـةُ[3] السـمراءُ
لم يبـق طِـرفٌ[4] أجـردٌ إلا أتـى مـن دونـهـا وطِمـرَّةٌ[5] جـرداءُ
ومفاضـةٌ[6] مسـرودةٌ[7] وكتيبـةٌ ملمومـةٌ[8] وعجاجـةٌ[9] شـهْباءُ[10]

ويحتفي ابن خفاجة بمشهد الخدر ، فيحشد له من العناصر الفنيَّة ، لاسيَّما الصُّورَ اللَّونيَّة ما يَمْنحُ المشهد الوصفي ثراءً ، وأضاف إليها نمنماتٍ

---

(١) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٧ .
(٢) ديوان ابن هانئ ، ص١٠ .
(٣) اليزنيّة : رماحٌ تنسب إلى ذي يزن أحد ملوك حمير ، ويزن اسمُ موضعٍ باليمن ، نُسب إليه ، وسمّيت الرماح يزنيّة ، لأنّ أول من عملت له ذو يزن ، اللِّسان : مادة (يزن).
(٤) الطرف : الكريم العتيق من الخيل ، اللِّسان : مادة (طرف) .
(٥) الطمّرة : أنثى الطمّر وهو الفرس الجواد ، اللِّسان : مادة (طمر) .
(٦) المفاضة : الدرع الواسعة ، اللِّسان : مادة (فيض) .
(٧) المسرودة : الدروع تداخل حلق بعضها في بعض ، اللِّسان : مادة (سرد) .
(٨) ملمومة : مجتمعة ، اللِّسان : مادة (لمم) .
(٩) العجاج : الغبار واحدته عجاجة ، اللِّسان : مادة (عجج) .
(١٠) الشهبة : بياض يداخله سواد أو غلب عليه السواد ، اللِّسان : مادة (شهب).

أندلسيَّة مثل صورة البرق والنجم التي شاركت أهل المحبوبة الغيرةَ عليها فيقول[1] :

ودونَ طُـرُوقِ الحـيِّ خوضـةُ فتكـةٍ مورَّسةٍ[2] السِّـربالِ[3] داميـةِ الظُّفْـرِ
تطلَّعُ في فَرْعٍ مـن النقـعِ[4] أسـودٍ وتُسفرُ عن خـدٍّ مـن السَّـيفِ مُحمـرِّ
فسِرْتُ وقلـبُ الـبرقِ يخفـقُ غـيرةً هناكَ وعينُ الـنَّجمِ تنظـرُ عـن شَـزْرِ

ولابن الزَّقَّاق البلنسي من قصيدة أوَّلُها[5] :

يا بـرقَ نجـدٍ هـل شَـعَرْتَ بمُـتيمٍ وهـبَ الكَـرى لوميضـكَ المتبسِّـمِ

وصفٌ لوالدِ المحبوبة بالشَّجاعة والفروسيَّة مبالغةً منه في وصف منعتها فيقول[6] :

يا بنتَ جـرّارِ الـذَّوابلِ[7] في الـوغى مَـن لي بظَـبيٍ في كفالـةِ ضـيغمِ

أمَّا ابن زيدون فيجعل أهل المحبوبةِ آساداً ، ويراها في حصون منيعةٍ كحصني (مارد والأبلق) وحول هذه الحصون كتائبُ ملتفَّةٌ ، وأهلٌ غيارى ، شجعان ، أقوياء ، فكأنَّه يخوض للقائها معركةً حقيقيةً وحرباً شعواء . . يقول[8] :

أجَلْ إنَّ ليلى حيثُ أحياؤُهـا الأسـدُ مهـاةٌ حمتـها في مراتعهـا أُسْـدُ
يمانيـةٌ تـدنو وينـأى مزارُهـا فسيَّانَ منها في الـهـوى القربُ والبُعـدُ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٤ .
(٢) الورس : صبغٌ أصفر ، اللِّسان : مادة (ورس) .
(٣) السِّربال : الدِّرع ، اللِّسان : مادة (سربل) .
(٤) النقع : الغبار السَّاطع ، اللِّسان : مادة (نقع) .
(٥) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٤٩ .
(٦) المصدر السابق ، ص٢٥٠ .
(٧) الذوابل : الرِّماح ، أساس البلاغة ، الزمخشري ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ، القاهرة ، ط . الثالثة ، ١٩٨٥م ، ٢٩٤/١ ، مادة (ذبل) .
(٨) ديوان ابن زيدون ، ص٣٥٠ .

إذا نحنُ زُرْنَاهـا تمـرَّدَ مـاردٌ وعزَّ فلـم نَظْفـر بـه الأبلـقُ الفـردُ[1]

تحولُ رمـاحُ الخـطِّ دون اعتيادهـا وخيـلٌ تمطَّـى نحـو غاياتـهـا جُـردُ

لِحَيٍّ لَقَاح[2] تـأنفُ الضـيمَ منـهمُ جحاجحـةٌ[3] شـيبٌ وصُـيَّابةٌ[4] مُـردُ

أبٌ ذو اعتـزامٍ أو أخٌ ذو تسـرُّعٍ فشيحانَ[5] ماضي العزم أو فاتكٌ[6] جَلْـدُ[7]

وفي قصيدة أخرى يغلبُ عليها الطَّابعُ البدوي ، ومطلعُها[8] :

أما في نسـيمِ الـرِّيحِ عـرفٌ معـرّفٌ لنا : هل لذاتِ الوقفِ بالجزعِ موقـفُ؟

يجعلُ دون المحبوبـةِ رماحاً ، وسيوفاً ، وأعداءَ حاقدين ، وصف حقدهم بالسَّواد ، مبالغة منه في إظهارِ شدَّتهم عليه لو ظفـروا به ، فكيف وهم أيضاً (غيارى) على المحبوبة ، ورغم ذلك كلِّه تكفَّل بزيارتها ، وأخذ على نفسه عهداً بذلك ، يقول[9] :

ضـمانٌ علينـا أن نُـزارَ ودونَهـا رِقاقُ الظُّبا[10] والسمهريُّ المثقَّـفُ[11]

---

(١) تمرّد ماردٌ ، وعزَّ الأبلق ، مارد : حصن دومة الجندل ، والأبلق : حصن السموءل ابن عَاديا ، قيل وصف بالأبلق لأنه بُنيَ من حجارةٍ مختلفة الألوان بأرض تيماء وهما حصنان قصدتهما الزبَاء ملكة الجزيرة ، فلم تقدر عليهما ، فقالت (تمرّد مارد ، وعزَّ الأبلق) فصار مثلاً لكلّ من يعزّ ويمتنع على طالبه ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ط . الثالثة ، ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م ، ١/١٢٦ .

(٢) قوم لقاحٌ ، وحيٌّ لقاح لا يدينون لملك ، ولم يُصبهم في الجاهليَّة سباء ، اللِّسان : مادة (لقح) .

(٣) جحاجحة : سادة كرام ، اللِّسان : مادة (جحجح) .

(٤) صيّابة القـوم : خيارهـم ، اللِّسان : مادة (صيب) .

(٥) الشيحان : الغيور ، اللِّسان : مادة (شيح) .

(٦) الفاتك : الجريء ، اللِّسان : مادة (فتك) .

(٧) جلد : صلب متين ، اللِّسان : مادة (جلد) .

(٨) ديوان ابن زيدون ، ص٤٧٩ .

(٩) المرجع السابق ، ص٤٨٠ .

(١٠) الظبا : جمع ظُبّة هو حدُّ السيف ، والسِّنان ، اللِّسان : مادة (ظبا) .

(١١) تثقيف الرِّماح : تسويتها ، اللِّسان : مادة (ثقف) .

وقومٍ عِدَى يبدونَ عن صفحَاتِهم[1] وأزهرُها[2] من ظلمةِ الحقدِ أكلفُ[3]
غيارى يعدُّونَ الغرامَ جريرةً بها والهوى ظُلماً يَغيظُ ويؤسفُ

وفي قصيدةٍ أخرى لابن زيدون أيضاً، يبالغ في وصف منعةِ أهلها وشدَّتهم، حتّى يتخيَّلُ أسلحتهم خمائل وأشجاراً ملتفَّةً لكثرتها، والمناهل من حولهم دماءُ أعدائهم، ويحفُّ بهذه المحبوبة (جيادٌ صوافن) و (بيضٌ سمرٌ عوامل) وشجعانٌ بواسل، ولها وليٌّ ـ قد يكون زوجاً أو أباً أو أخاً ـ طويلٌ ليلُه يتغيَّظ عليه يقول[4]:

مرَادُهُمُ حيثُ السِّلاحُ خمائلٌ[5] ومواردهم حيثُ الدِّماءُ مناهلُ[6]
ودونَ المُنى فيهم جيادٌ صوافنُ ومأثورةٌ[7] بيضٌ وسمرٌ عواملُ[8]
لكلِّ نجيدٍ[9] في النِّجادِ[10] كأنّما تُناطُ[11] بمتنِ الرُّمحِ فيه حمائلُ[12]
طويلٌ علينا ليلُهُ من حفيظةٍ[13] كأنَّ صبابات النفوسِ طوائلُ[14]

---

(١) صفحاتهم: جوانب وجوههم، اللِّسان: مادة (صحف).
(٢) الأزهر: الأبيض، اللِّسان: مادة (زهر).
(٣) الكلف: كُدْرةٌ تعلو الوجه، اللِّسان: مادة (كلِفَ).
(٤) ديوان ابن زيدون، ص٣٨٠.
(٥) الخمائل جمع خميلة، وهي الشجر الكثير المجتمع الملتف الذي لا يُرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه، اللِّسان: مادة (خمل).
(٦) مناهل: مشارب، اللِّسان: مادة (نهل).
(٧) مأثورة: سيوف في متونها أثر، وقيل إنها من عمل الجنّ. اللِّسان: مادة (أثر).
(٨) العوامل: صدور الرِّماح، اللِّسان: مادة (عمل).
(٩) النجيد: الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره، اللِّسان: مادة (نجد).
(١٠) النِّجاد: ما وقع على العاتق من حمائل السيف، اللِّسان: مادة (نجد).
(١١) تُناط: تعلّق، اللِّسان: مادة (نوط).
(١٢) معنى البيت ((عشيرتها مكونة من كل شجاع باسلٍ كالأسد الكاسر، سيفُه مشدود إلى وسطه، وقد تعلّق السيف منه بقامةٍ كالرِّمح)) شرح علي عبد العظيم على ديوان ابن زيدون، الهامش، ص٣٨٧.
(١٣) الحفيظة: الغضب والحميَّة، اللِّسان: مادة (حفظ).
(١٤) طوائل: أوتار وثارات، جمع طائلة أي عداوة وترة، اللِّسان: مادة (طول).

كناسٌ دَنَا منـهُ الشَّـرى[1] في محلّـه بـهـا الليثُ يعـدُو والغـزالُ يغـازلُ
لعمرِ القبابِ الحمـرِ وسْـطَ عـرينُهم لقد قُصِرتْ فيها السُّـرُوبُ[2] العقائـلُ[3]

وإذا كان ابن زيدون قد بالغ في وصف المنعةِ ، فقد سبقه ابن هانئ إلى مبالغةٍ أقوى ، حين جعل من حرّاسِ المحبوبة (الجنَّ الصَّلادم) وأضاف إليهم (صعاليكَ نجد) ، وصعاليك العرب ذؤبانُها[4]، وأراد الشَّاعرُ بالتَّصعلك هنا شدَّة القوَّة والبأس ، وعدم الخوف من أيِّ شيء ، وجعل أهلها أُسْداً ، وحاميها الذي قد يكون زوجاً أو أباً أو أخاً ، أشوسَ غيران ، يقول ابنُ هانِئ[5]:

فكيفَ بـهـا نجديَّـةٌ حـالَ دونَهـا صعاليكُ نجـدٍ في متـونِ الصَّـلادمِ[6]
وأشوسُ[7] غيرانٌ عليهـا حُلاحِـلٌ[8] طويلُ نجـادِ السَّـيفِ ماضـي العـزائمِ

وهو ما يعيدُ إلى الأذهان صورة المحبوسةِ عند الفرزدق[9]:

فكيـف بمحبـوسٍ دعـاني ودونَـهُ دروبٌ وأبـوابٌ وقصـرٌ مشـرَّفُ[10]
وصـهبٌ لحـاهُم راكـزونَ رمـاحَهم لهم درَقٌ[11] تحـتَ العـوالي مصـفَّفُ

فابن هانئ جاء بالجنّ ، ولم يكتفِ بأنهم جنٌّ بل أضاف وصفهم بالشدَّة والقوّة ، وكأنَّهم من مردتها (جنٌّ صلادم) ، وذلك لداعي إضفاء الغرابة

---

(١) الشَّرى : موضع بعينه تأوي إليه الأسود ، اللِّسان : مادة (شري) .
(٢) السّرب : القطيع من النساء والظباء . اللِّسان : مادة (سرب) .
(٣) العقائل : جمع عقيلة ، وهي الكريمة من النساء ، اللِّسان : مادة (عقل) .
(٤) انظر : اللِّسان : مادة (صعلك) .
(٥) ديوان ابن هانئ ، ص٣٠٨ .
(٦) الصلادم : جمع صلدم وهو الشديد الصّلب ، اللِّسان : مادة (صلدم) .
(٧) الشوس : النظر بمؤخر العين تكبُّراً أو تغيُّظاً ، اللِّسان : مادة (شوس) .
(٨) الحُلاحل : السيّد في عشيرته ، الشّجاع الركين ، اللِّسان : مادة (حلل) .
(٩) ديوان الفرزدق ، تحقيق : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . الثانية ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م ، ٢/٧٤ .
(١٠) قصر مشرّف : مطوّل ، مرتفع ، اللِّسان : مادة (شرف) .
(١١) الدَّرق : الترس من جلد ، اللِّسان : مادة (درق) .

على الصُّورة ، وَوَصْفِ مشهدٍ مخيف لحيٍّ هذه المحبوبة ، ممَّا يجعلُ الوصول إليها ضرباً من المستحيل ، كما فعل الفرزدق الذي صوَّر الصُّهب وهو ((إنَّما ذكر الرُّوم مع أنَّ الفروسيَّة والجسارة والقوّة للعرب ، وهكذا كان زمانه ، لأنَّه أراد الأمر العجيب والصورة غير المألوفة))[1].

وقد أكثر الشُّعراء الأندلسيُّون من وصف العدَّة والعديد . يقول ابن الزَّقَّاق[2] :

ودونَ قبابِ رَبْربنَا[3] رعيلٌ[4] ... من الفرسان يتْبعهُ رعيلُ
إذا ما همَّ أن ينجابَ ليلٌ ... أمدَّتْه بعثيرِهَا[5] الخيولُ
وإن مالتْ كواكبهُ لغربٍ ... فثمَّ شَبا[6] الأسنَّةِ[7] والنصولُ[8]

ولا يتوقَّفُ المشْهد عند وصف المنعة ، بل يستطرد الشَّاعر فيما يُشبه المنحى السَّردي ، فيصفُ اختلاس الفرصة للقاء المحبوبة ، مخاطراً بحياتِهِ من أجلِهَا إلى أن يحظى بها ، فهذا الفارسُ أو الشَّاعر ((من سماتِهِ الجميلة ، ارتباطُه بامرأةٍ جميلةٍ ، وتخطّى الصعابَ من أجلها))[9].

---

(١) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط . الثانية ، ١٩٩٨م ، ص١٣٠ .

(٢) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٣٠ .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش أو الظباء ، اللِّسان : مادة (ربب) .

(٤) رعيل : القطيع ، أو القطعة من الخيل ، اللِّسان : مادة (رعل) .

(٥) العثير : العثيرة العجاج السَّاطع ، اللِّسان : مادة (عثر) .

(٦) شبا : حدَّ وطرف ، اللِّسان : مادة (شبا) .

(٧) الأسنّة : جمع سنان للرُّمح . اللِّسان : مادة (سنن) .

(٨) نصول : النَّصل حديدةُ السهم والرمح ، اللِّسان : مادة (نَصل) .

(٩) بحوث جماليّة في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الله العسَّاف ، نادي المنطقة الشرقية الأدبي ، الدمام ، المملكة ، ١٤٢٢هـ ، ص٧٠ .

يقول يوسُف الثالث واصفاً كيف أتعب إبله في مواصلة السّير إلى من يحب ، وكيف جاء الحيَّ مستهدياً إلى خبائها بنورٍ فيه ، ورائحة البخور الموقدة ،وكيف أخفى وطأه كي لا ينتبه قومها الأشدَّاءُ ذوو البأس ، ويذكرُ أنَّه خاطر بحياتِهِ في هذه المغامرة ، إلى أن وصل إلى ما أراد وهو (اقتحام الخدر) فكل عسيرٍ متيسِّرٌ في الهوى ، يقول[1] :

وقدْ هَجَرت نفسي الهجودَ ... وعيسيَ[2] أنضاها السّرى[3] والتهجُّرُ[4]
إلى أن تَرَامتْ بي إلى ضوءِ حلَّة[5] ... لديها الكَبَا[6] الهنديُّ ما زالَ يسجُرُ[7]
فأخفيتُ وطئي كي أناهزَ فرصةً ... وبحرُ المنايا طافحُ الموجِ يزخَرُ[8]
وخاطرتُ بالنفسِ الشّعاعِ[9] بمازق ... يرى لوشيجٍ[10] الخطِّ[11] فيه تخطُّرُ[12]
إلى أن ولجتُ الخدْرَ والشوقُ غالبٌ ... وكلُّ عسيرٍ في الهوى متيسِّرُ

---

(١) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٧ .

(٢) العيس : من الإبل التي تضرب إلى الصفرة ، وقيل الإبل البيض يخالطها شيء من الشقرة ، اللِّسان : مادة (عيس) .

(٣) السُّرى : سيرُ الليل كلّه ، اللِّسان : مادة (سرا) .

(٤) التَّهجُّرُ : السير في الهاجرة ، وهو نصف النهار ، اللِّسان : مادة (هجر) .

(٥) الحِلّة : القوم النزول ، وفيهم كثرة ، وهم جماعةُ بيوت الناس ، سميت بذلك لأنّها تحُل ، اللِّسان : مادة (حلل) .

(٦) الكبا : البخور ، اللِّسان : مادة (كبا) .

(٧) يسجر : يوقد ، اللِّسان : مادة (سجر) .

(٨) يزخر : يمتدُّ ويرتفع ، اللِّسان : مادة (زخر) .

(٩) النفس الشعاع : التي انتشر رأيُها فلم تتجّه لأمر حزم ، اللِّسان : مادة (شعع) .

(١٠) الوشيج : شجر الرماح ، اللِّسان : مادة (وشج) .

(١١) الخطّ : أرضٌ ينسبُ إليها الرماح الخطيَّة ، وقد جُعلت النسبةُ اسماً لازماً للرماح ، اللِّسان : مادة (خطط) .

(١٢) تخطّر الرماح : اهتزازها ، اللِّسان : مادة (خطر) .

وقد كانت ظلال عمر بن أبي ربيعة في رائيته المشهورة واضحةً في قصيدة يوسُف الثالث السَّابقة[1].

وعمر بن أبي ربيعة ، وبعده يوسفُ الثالث ، يفصِّلان في القصيدتين السَّابقتين ، ما أجمله امرؤ القيس في قوله[2] :

سمـــوتُ إليهـــا بعـــدما نـــامَ أهلُهـــا ... سُموَّ حبـــابِ المـــاءِ حـــالاً علـــى حـــالِ

وكلُّ ما وجدناه ـ تقريباً ـ عند الشُّعراء الأندلسيين ، في قصّة الخدر ، كان تأثيرُ امرئ القيس واضحاً فيه ، ويعود بنا إلى بداية هذه الصُّورة عنده ، كما في قوله[3] :

وبيضـــةِ خـــدرٍ لا يُـــرام خباؤُهـــا ... تمتَّعتُ من لهـوٍ بـهـــا غـيرَ معجـلِ

تجـــاوزت أحراســـا إليهـــا ومعشـــرا ... علـــيَّ حِراصـــا لـــو يُـــرون مقتلـــي

وممَّن ألمَّ بهذا المعنى عنده ، ابن شهيد في قصيدته التي عارض[4] بها قوله :

---

(١) إذ يقول عمر بن أبي ربيعة : ٠

وليلة ذي دَوران جشّـمي السُّـرى ... وقد يجشـم الهـول الحَـبُّ المغـرَّرُ

فبتُّ رقيبـاً للرفـاق علـى شـفا ... أحاذر منهم مـن يطـوف وأنظـرُ

إليهم متى يستمكنُ النـومُ منـهم ... ولي مجلـسٌ لـولا اللبانـةِ أوعـرُ

وباتت قلوصـي بـالعراء ورحلُهـا ... لطارق ليـلٍ أو لمـن جـاء معـور

وبتُّ أناجي النـفس أيـن خباؤهـا ... وكيف لما آتيّ مـن الأمـر مصـدرُ

فدلَّ عليهـا القلـبَ ريَّـا عرفتُهـا ... لـهـا وهوى النفس الذي كاد يظهر

فلمَّا فقدتُ الصوت منهم وأطفئـت ... مصابيح شـبَّت في العشـاء وأنـور

وغاب قُميرٌ كنـت أرجـو غيوبـه ... وروَّح رعيـانٌ ونـوّم سُـمَّر

وخفّض عني النوم أقبلتُ مشيته الحـ ... ـباب وركـبي خشـية القـوم أزورُ

انظر : ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٢٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص١٣٧ .

(٣) المرجع السَّابق ، ص٣٥ .

(٤) في الديوان ((قال ابن شهيد يُعارض قصيدةً لامرئ القيس))، ص٧٣ ، وفي رسالة التوابع والزوابع ، ذكر أنه أنشد القصيدة لتابع امرئ القيس (عتبة بن نوفل)، ص١٩٦ ، ديوان ابن شهيد ورسائله .

(سما لَكَ شوقٌ بعدما كان أقصرا)[1]، فأخذ صورة تجاوز الحُرّاس ، والأهوال ، والمعشر ، وذلك في قوله[2] :

وأخرى اعتلقْنَا دونهنَّ ودونَها قصورٌ وحُجّابٌ ووالٍ ومعشرُ

لقد وجدنا الشَّاعر الأندلسيَّ ، وصف ما وصفه امرؤ القيس ، وبالغ ، حتى جعل حول المحبوبة جيشاً جرّاراً ، وعتاداً ، وعدَّة ، ومن وراء حُرّاسها حُرّاساً آخرين ، فهو هولٌ دونه أهوال ، وقد يكون منهم الصعاليك والجنُّ الصَّلادم ، والأهلُ الغيارى ، يشركهم في الغيرة البرق والنجم ، وقد يكونون أعداءً للشَّاعر مما يزيدهم غيظاً منه ، هذه الصُّور وغيرها حَشَد معظمها الشَّاعر الأندلسيّ تعزيزاً منه لصورة هذه المنعة ومعناها . وهو أنَّه يريد أن يدلَّ بالتَّالي على قدرته هو على خوض الغمرةِ والظفر بما يُريد ، يقول ابن زيدون[3] :

ضمانٌ علينَا أن تُزارَ ودونَها رقاقُ الظُّبا والسمهريُّ المثقَّفُ

لأنَّ : (ريحَ الشَّوقِ من ذاكَ أعصفُ)[4].

فـ[5] :

هل الرَّوعُ إلاّ غمرةٌ[6] ثمَّ تَنجلي أم الهولُ إلاّ غُمَّةٌ[7] سوفَ تُكشفُ

لا شيء يحول بين الشَّاعر وما يُريد ، فهو لا يخشى شيئاً ، حتّى أنَّه (يسفرُ للغيران) إمعاناً منه في إغاظته ، وقدرته على ما يشاء ، يقول ابن هانئ في هذا المعنى[8] :

ولم تدرِ أنّي ألبسُ الفجرَ والدُّجى وأسْفِر للغيرانِ بعدَ تلثُّمي

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٥٦ .

(٢) ديوان ابن شهيد ورسائله ، ص٧٣ .

(٣،٤) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٠ .

(٥) المصدر السَّابق ، ص٤٨١ .

(٦) الغمرة : الشدّة ، اللِّسان : مادة (غمر) .

(٧) الغُمّة : الكرب ، اللِّسان : مادة (غمم)

(٨) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٣ .

وما كلُّ حيٍّ قد طرقتُ بهاجعٍ وما كلُّ ليلٍ قد سريتُ بمظلمِ
وكم كُربةٍ كشَّفتُها بثلاثةٍ من الصَّحبِ : خيفانٍ[1]، وماضٍ[2]، ولهذمِ[3]
وما الفتكُ فتكُ الضاربِ الهامَ في الوغى ولكنَّه فتكُ العميدِ المتيَّم

والشَّاعرُ حين يسفرُ للغيران ، ويطرقُ الحيَّ في وضح النَّهار ، متوشِّحاً سيفه ورمحه ، يُعلن تحدّيه لهذا الغيران ، وثقته هو ـ أي الشَّاعر ـ بمنعتِه وقدرتِهِ وشجاعته ، وهو ما وجدنا فيه شَوْباً من قول امرئ القيس[4] :

خرجتُ بها تَمشي تجرُّ وراءَنا على أثرينَا ذيلَ مُرْطٍ مرحَّلِ

أي أخرجتُها من خدرها ، فهو لم يكتفِ بدخول هذا الخدر واقتحامه رغم وجود الأهوال والمعشر ، ولم يقُل (خرجنا) أو (خرجت معها) إنَّما قال (بها) فبحرف التعدِّي الباء دلَّ على أنَّه تجاوز الأهوال والمعشر مرَّة ثانية (بها) وليس وحده كما في الأولى ، وجعلها في حوزته ، وذلك إمعانٌ منه في التحدّي ، وتمكينٌ لمعنى شجاعته وجسارته .

وقد زاد في هذا المعنى قوله : (تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ معجل)[5].

فقوله (غيرَ معجل) يعني أنَّه لم يَخْشَ شيئاً ، رُغم أنَّها (لا يُرام خباؤها) .

وهو معنى قوله من قصيدة أخرى[6] :

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوالِ

فخوضُ الغمرةِ لاقتحامِ خدرِ المحبوبةِ في الشِّعر ، يدلُّ به الشَّاعر على اقتدارِه ، وهو بابٌ من أبوابِ التمدُّح بالشَّجاعة ، يشبه التمدُّح بخوض الحروب

---

(١) الخيفان : من الجراد ، ويُطلق الخيفان على الفرس ، شُبِّهت به لخفَّتها وضمورها ، ويقول امرئ القيس :

وأركبُ في الرَّوع خيفانةٌ لها ذنبٌ خلفها مسبطرّ

اللسان : مادة (خيف) .

(٢) الماضي ، السيف القاطع ، اللِّسان : مادة (مضى) .

(٣) لهذم : اللهذم ، كل شيء من سنان أو سيف قاطع ، اللِّسان : مادة (لهذم) .

(٤) ديوان امرئ القيس ، ص٣٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٦) المرجع السَّابق ، ص١٣٧ .

والاقتتال من أجل شرف القبيلة ، وهو الأمرُ الذي يعجب النِّساء في كلِّ وقت ، وعصر .

لقد تغنّى الشُّعراء الأندلسيُّون بقدرتهم على خوض الغمراتِ لاقتحام الخدور ، وكانت ظلال امرئ القيس ، وعمر بن أبي ربيعة ، وغيرهما واضحةً في قول ابن خفاجة[1] :

لقد جُبْتُ دونَ الحيِّ كلَّ ثنيَّةٍ[2] يحومُ بها نسرُ السماءِ على وكْرِ[3]
وخضتُ ظلامَ اللَّيلِ يسودُ فحمةً وَدُسْتُ عرينَ اللَّيثِ ينظرُ عن جَمْرِ
وجئتُ ديارَ الحيِّ واللَّيلُ مطرقٌ منمنمُ ثوبِ الأفقِ بالأنجم الزُّهرِ

وفي سياق تغنّي الشَّاعر بقدرته ، وجسارته ، يصف ابن هانئ المحبوبة بأن (حولها آسادٌ أغيال)[4] وألفُ فارسٍ يمعنون النظر إليها خشيةً عليها[5]، وأشوسُ غيران ، وهو لو شاء لوصل إليها[6]، ولو كانت خيامُها بين النّجوم يقول[7] :

ولو شئتُ لم تبعدْ عليَّ خيامُها ولو طُنِّبتْ[8] بين النجومِ العواتمِ
وبات لها منّي على ظهرِ سابحٍ[9] أشمُّ[10] أبيُّ الظُّلمِ من آلِ ظَالمِ
وأسهرُها جرُّ الرِّماحِ على الثَّرى بأيدي فتوُّ الأزدِ[11] صُفْرِ العَمائمِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٣ .
(٢) الثنيَّة : الطريقةُ في الجبل كالنّقب ، وأثناءُ الوادي والجبل ، معاطفه ومحانيه ، اللِّسان : مادة (ثني) .
(٣) وكرُ الطائر : عشّه ، اللِّسان : مادة (وكر) .
(٤،٥،٦) انظر ديوان ابن هانئ ، ص٣٠٨ .
(٧) المصدر السَّابق ، ص٣٠٩ .
(٨) خباءٌ مطنّب مشدود بالأطناب ، وهي الحبال ، اللِّسان : مادة (طنب) .
(٩) السَّابح: يوصف به الفرس إذا كان حسنُ مدّ اليدين في الجري،اللِّسان:مادة (سبح).
(١٠) الأشمُّ : السَّيد ذو الأنفة ، اللِّسان : مادة (شمم) .
(١١) أزد : أبو حيّ من اليمن ، اللِّسان : مادة (أزد) .

هو تصويرٌ إذاً لاقتدار الشاعر على الوصول إلى الشَّيء الممنَّع الممنوع ، وهذا المعنى ليس ببعيدٍ عن قول امرئ القيس[1] :

فجئتُ وقد نضَّتْ لنومٍ ثيابَها ... لدى السِّترِ إلاَّ لبسةَ المتفضِّلِ

وهو يعني أنه وصل إلى المكان الذي لا يصل إليها فيه أحد ، وهو (خدرها) ، في وقت لا يجرؤ أحدٌ على الدخول عليها فيه ، وهي مستعدَّة للنَّوم (وقد نضت لنومٍ ثيابها) وليس عليها سوى (لبسة المتفضّل) .

ويُلقي امرؤ القيس بظلاله على قول ابن الزَّقَّاق أيضاً[2] :

وليلٍ خُضْتُ منه عُبابَ بحرٍ[3] ... خضمٍّ ما لساحله سبيلُ

إذا جَارَت بيَ الظُّلماءُ فيه ... فمن شَوقي المُبرح لي دليلُ

طرقتُ به الأوانسَ بعدَ وَهنٍ ... وفي كفّي سُريجيٌّ[4] صَقيلُ[5]

فلقاءُ المحبوبة وتجاوز الأهوال من أجلها ، موقفٌ يستدعي المخاطرة بالنَّفس ، يقول يوسف الثالث[6] : ((وخاطرت بالنفس الشَّعاع بمأزق))

ويقول ابن زيدون في معنى المخاطرة بالنفس أيضاً[7] :

أمحجوبةٌ ليلى ولم تُخضَب القَنَا ... ولا حَجَبتْ شمسُ الضُّحاءِ القساطلُ[8]

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٣٧ .

(٢) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص٢٣٠ .

(٣) العباب : كثرة الماء وارتفاعه ، وقيل الموج ، اللِّسان : مادة (عبب) .

(٤) السريجيُّ : ضربٌ من السُّيوف ، تُنسب إلى سُريج وهو قينٌ معروف ، اللِّسان : مادة (سرج) .

(٥) الصقيل : السيف ، اللِّسان : مادة (صقل) .

(٦) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٨ .

(٧) ديوان ابن زيدون ، ص٣٨٨ .

(٨) القسطل : الغبار السَّاطع ، اللِّسان : مادة (قسطل) .

وهو ينظر في هذا البيت إلى قول قيس بن ذُريح[1] :

أمضـــروبةٌ ليلـــى علـــى أن أزورَهَـــا ومتّخـــذٌ جُرمـــاً علـــى أن ترانيـــا

وفي هذا المعنى ـ خوض الغمرة للقاء المحبوبة ـ يقول ابن شُهيد أيضاً[2]:

تكلّفتُهـــا والليـــل قَـــدْ جَـــاشَ بحـــرُهُ وقـــد جعلـــتْ أمواجُـــهُ تتكسّـــرُ

ومن تحت حضني أبيضٌ ذو سفاســقٍ[3] وفي الكفِّ من عسّـالةٍ[4] الخـطِّ أسمـرُ

هما صاحبايَ مـن لـدنِ كنـتُ يافعـاً مُقيْلانِ[5] من جَدٍّ[6] الفتى حـين يعثُـرُ

إلى أن يقول[7] :

إلى بيتِ ليلى وهو فـردٌ بـذي الغَضَـا يضـيءُ لعـينِ المسـتهامِ ويزهـرُ

والشّاعر حين يذهب لهذا اللّقاء ، يتوشّحُ سيفه ويستبدُّ به شوقُه ، يقول ابن الزَّقّاق[8] :

ولربَّما اتَّشحتْ[9] هناكَ عـواتقي بنجادِ[10] مطـرورِ[11] الغـرارِ[12] مصـمّمِ[13]

---

(١) ديوان مجنون ليلى ، ص٢٥٤ .

(٢) ديوان ابن شهيد ، ص٧٣ .

(٣) سفاسق السيف: طرائقه التي يقال لها الفِرَند، فارسي مُعرّب، اللّسان: مادة (سفسق).

(٤) عَسَلَ الرمح : اشتدَّ اهتزازه واضطرب ، اللّسان : مادة (عسل) .

(٥) أقال الله فلاناً عثرته : بمعنى الصفح عنه ، اللّسان : مادة (قيل) .

(٦) الجدّ : الحظّ ، اللّسان : مادة (جدد) .

(٧) ديوان ابن شهيد ، ص٧٣ .

(٨) ديوان ابن الزَّقّاق ، ص٢٥٠ .

(٩) اتّشح : الرجل يتوشّح بحمائل سيفه ، يلبسها ، فتقع الحمائل على عاتقه اليُسرى ، وتكون اليمنى مكشوفة . اللّسان : مادة (وشح) .

(١٠) النجاد : ما وقع على العاتق من حمائل السيف ، انظر : اللّسان : مادة (نجد) .

(١١) المطرور : المحدَّد ، وطررتُ السّنان حددته ، اللّسان : مادة (طَرَرَ) .

(١٢) الغرار : حدَّ السيف ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .

(١٣) المصمم : من السيوف الذي يمرُّ في العظام ، اللّسان : مادة (صمم) .

أسطُو به والشوقُ أعظمُ سـطوةً منّـي فينقـادُ العظـيمُ لأعظـمِ

وهو يفعل ذلك لأنَّه لن يحظى برؤية المحبوبة إلاَّ بعد لأيّ وقتال ، وفي ذلك يقول ابن زيدون[1] :

كم ذا التجلّد لـن يسـاعفكَ الهـوى بالوصـلِ إلاّ أن يطـولَ جـلادُ[2]

ولا يفوتُ الشَّاعر أن يصفَ خوف المحبوبة على نفسِها أن تُفضح ، وخشيتها أن يصيبه أيُّ مكروهٍ لعلمها بشجاعته وجسارته ، ولننظر إلى هذه الصُّورة الأخّاذة التي يصف فيها ابن هانئ مدى رعب هذه الحسناء التي خشيت عليه أن يلقى الأخطار ، ولذا أصاختْ السَّمع لوقع فرسه ، واستشرفت لترى لمع سيفه ، ولشدَّة السُّكون الذي كان ، والظلام المنسدِلْ راعها جرسُ حليِّها ، ولمعة خلخالها ، ويمعن ابن هانئ في تفاصيل هذه الصُّورة المليئة بالحركة ، ليصل بنا إلى تخيُّل لمدى خوفها عليه ، لعلمها بجرأتِه فيقول[3]:

أصَاخَتْ فقالَتْ وقعُ أجردَ[4] شـيظمٍ[5] وشامتْ[6] فقالت لمعُ أبـيضَ خـذمِ[7]

ومـا ذُعـرتْ إلاّ لجـرسِ حُليِّهـا ولا لَمَحَتْ إلاّ بُـرىً[8] مـن مُخـدَّمِ[9]

ولا طَعِمَتْ إلاّ غِراراً[10] مـن الكَـرى حذارَ كلوءِ[11] العينِ غـيرَ مهـوِّمِ[12]

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٤٤٨ .

(٢) الجلاد : الضرب بالسيف في القتال ، اللِّسان : مادة (جلد) .

(٣) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٣ .

(٤) فرسٌ أجرد : قصير الشّعر ، وذلك من علاماتِ العتق والكرم ، اللِّسان : مادة (جرد).

(٥) الشيظم : الطويل الجسم الظاهرُ العصب من الخيل ، اللِّسان : مادة (شظم) .

(٦) شِمتَ مخايل الشيء ، إذا تطلّعت نحوه ببصرك منتظراً له ، اللِّسان : مادة (شيم) .

(٧) الخذم : في السيف سرعة القطع ، اللِّسان : مادة (خذم) .

(٨) البرى : الخلخال ، اللِّسان : مادة (بريَ) .

(٩) المخدَّم : موضع الخدْمة ، أي الخلخال من المرأة ، اللِّسان : مادة (خدم) .

(١٠) الغرار : القليل من النَّوم ، اللِّسان : مادة (غرر) .

(١١) رجلٌ كلوء العين : أي شديدها لا يغلبه النَّوم ، اللِّسان : مادة (كلأ) .

(١٢) التهويم : النوم الخفيف ، اللِّسان : مادة (هوم) .

حـــذارَ فـــتى يلقـــى الغيـــورَ بحتفـــهِ ويمرقُ تحتَ اللَّيـــلِ مـــن جلـــدِ أرقـــمِ
وقالتْ : هو الليثُ الطَّروق بدي الغَضَـا فليسَ حفيفُ[1] الغيـلِ[2] إلاَّ لضـيغمِ
يَعُـزُّ علـى الحسـناءِ أن أطـأ القَنـا وأعثرَ في ذيلِ الخميـسِ[3] العرمـرمِ[4]
تـودُّ لـو أنَّ اللَّيـلَ كفـؤٌ لشـعرها فيسـترَ أوضـاحَ الجـوادِ المسـوَّمِ[5]

ويصفُ يوسُف الثالث ارتياعَ هذه المحبوبة حين يدخل الخدر ، ولا يفوتُه أن يصف جمال نظرتها وهي مروَّعة ، إذ يشبِّهها بالظبي المنفَّر ، وهي نظرةٌ فيها كثيرٌ من الترقُّب والتوجُّس والخوف ، والجاذبيَّة أيضاً ، يقول[6] :

فريعت وقد طارَ الكرى عن جفونـها كما ريـعَ لحـظُ الظَّـبي وهـو منفَّـر

وفي هذا المعنى أيضاً يقولُ ابن الزَّقاق[7] :

فـروَّعَهنَّ مـن سـيفي ومـيضٌ وأيقظهـنَّ مـن طِـرْفي[8] صـهيلُ[9]
يقُلنَ علـى انخفـاضِ الصَّـوتِ أنّـي سـريتُ وبيننـا واشٍ يحـولُ

ويستبدُّ بالمحبوبةِ الذُّعر ، في حين يستبدُّ بالشَّاعر الشوق يقول ابن خفاجة[10] :

وطـارَ إليهـا بي جنـاحُ صـبابةٍ فطارَ بـهـا عنّي جنـاحٌ مـن الـذُّعرِ
فقلـتُ رويـداً لا تُراعـي فإنّنـا لنطوي ضلوعَ اللَّيـلِ منّـا علـى سـرِّ

---

(١) الحفيف ، صوت الشيء ، اللِّسان : مادة (حفف) .
(٢) الغيل : الشجر الكثير الملتف ، كالأجمة يستتر فيه الأسد ، اللِّسان : مادة (غيل) .
(٣) الخميس : الجيش الجرار ، اللِّسان : مادة (خمس) .
(٤) العرمرم : الكثير ، اللِّسان : مادة (عرم) .
(٥) الفرس المسوَّم : أي عليه علامة ، اللِّسان : مادة (سوم) .
(٦) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٨ .
(٧) ديوان ابن الزقاق ، ص٢٣٠ .
(٨) الطِرف بالكسر من الخيل الكريم العتيق ، اللِّسان : مادة (طرف) .
(٩) الصهيل : صوت الفرس ، اللِّسان : مادة (صهل) .
(١٠) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٣ .

وسكَّنتُ من نفسي تَجيشُ مروعةٍ ومسَّحتُ عن عطفٍ[1] تمايلَ مزورِّ[2]

وصورةُ ارتياع المحبوبة في حكايةِ الخدرِ قديمة في الشِّعر سنَّها امرؤ القيس الذي يقول[3] :

ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ فقالت : لكَ الويلاتُ إنَّك مُرجلي

وكذلك يقول[4] :

فقالت : سباكَ اللهُ إنَّك فاضحي ألستَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوالي

فقلتُ : يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأوصَالي

حلفتُ لها باللهِ حلفةَ فَاجرٍ لنامُوا فما إنْ من حديثٍ ولا صالِ

وكذلك الأعشى[5] :

قالت هريرةُ لمَّا جئتُ زائرَها ويلي عليكَ وويلي منكَ يا رَجلُ

وعمر بن أبي ربيعة في رائيتَه[6] :

فحييتُ إذْ فاجأتُها فتولَّهت وكادتْ بمخفوضِ التحيَّةِ تجهرُ

وقالت : وعضَّتْ بالبنانِ فضحتني وأنتَ امرؤٌ ميسورُ أمرِك أعسَرُ

أريتُكَ إذ هُنَّا عليكَ أَلَمْ تَخَفْ وُقيتَ وحولي من عدوِّك حُضَّرُ

لقد كانت صورةُ اقتحام الخدر ، متوارثة متواترة ، عن امرئ القيس ، عبر كثير من الشُّعراء ، حتَّى وصلت إلى الأندلس ، وتناول الشُّعراء الأندلسيُّون حكايةَ الخدر بمعظم عناصرها القيسيَّة .

فكما دخل امرؤ القيس الخدر في قوله ((ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزة))[7] كذلك قال الشاعر الأندلسيُ ابن الزَّقَّاق[8] :

---

(١) العطف : المنكب ، اللِّسان : مادة (عطف) .

(٢) مزورّ : مائل ، اللِّسان : مادة (زور) .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص٢٧ .

(٤) المرجع السَّابق ، ص١٣٧ .

(٥) ديوان الأعشى ، ص٢٨١ .

(٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٢٣ .

(٧) ديوان امرئ القيس ، ص٢٧ .

(٨) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص١٣٣ .

وليلٍ طرقتُ الخدرَ فيه وللدُّجى عبابٌ تراهُ بالكواكبِ مزبدَا

وكما انعكست المغامرةُ عند امرئ القيس ، فخرجت له محبوبته على خوفٍ ووجلٍ فقال[1] :

بعثتُ إليها والنجومُ طوالعٌ حذاراً عليها أن تقومَ فتُسمعا
فجاءَتْ قطُوفُ المشي هيَّابَةُ السُّرى يدافعُ ركنَاهَا كواعبُ أربَعَا
يُزَجينَها مشيَ النَّزيفِ[2] وقد جرى صبابُ الكرى في مخّها فتقطَّعا

كذلك فعل الشَّاعر الأندلسيّ ، يقول ابن زيدون[3] :

وليلةَ وافتنا الكئيبَ لموعدٍ سُرى الأيمِ لم يَعْلم لمسراهُ مزحفُ
تهادى أناةَ الخطوِ مرتاعةَ الحشا كما ريعَ يعفورُ الفَلا المتشوِّفُ

((لقد تُعكس المغامرة ، فبدلاً من أن يكون الشَّاعر هو صاحبُها وبطلُها ، تكون المحبوبةُ المعشوقة هي التي تتجشَّم الصِّعابَ ، وتقتحم المهالك من أجل الوصول إلى العاشق)) [4] .

ويكتمل مشهد الخدر بأن ينال الشَّاعرُ بغيته ، ويظفر بمراده ، كما اكتمل عند امرئ القيس في قوله[5] :

ولمَّا أجزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حقافٍ عقنقلِ
هصرتُ بفودي راسَها فتمايلتْ عليَّ هضيمَ الكشحِ ريَّا المخلخلِ

وفي قوله أيضاً[6] :

فلمَّا تنازَعْنَا الحديثَ وأسمحتْ هَصَرتُ بغصنٍ ذي شماريخَ ميَّالِ

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص١٢٥ .
(٢) النَّزيف : السكران ، اللِّسان : مادة (نزف) .
(٣) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٢ .
(٤) امرؤ القيس شاعر اللهو والغزل والطلل ، دكتور يحيى شامي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٩٩٧م ، ص٨٧ .
(٥) ديوان امرئ القيس ، ص٤٠ .
(٦) المرجع السَّابق ، ص١٣٧ .

وصـــرنا إلى الحســـنى ورقَّ كلامُنَـــا ورضـــتُ فـــذلَّت صـــعبةً أيَّ إذلالِ

يقول ابن خفاجة[1] :

وسَكَّنتُ مـــن نفـــسٍ تجـــيشُ مروعـــةٍ ومسَّحت عـــن عطـــفٍ تمايـــل مـــزورِّ
ومزَّقتُ جيـــبَ اللَّيـــلِ عنـــها وإنَّمـــا رفعتُ جناحَ النَّسرِ عن بيضةِ الخـــدر[2]
وقبَّلـــتُ مـــا بـــين المحيَّـــا إلى الطُّلـــى وعانقتُ ما بـــينَ التَّراقـــي إلى الخصـــر

وفي قوله (رفعت جناح النّسر عن بيضةِ الخدر) وصفٌ لبطولةٍ محضة .

يقول ابن شهيد[3] :

فَبِتْنَـــا علـــى ضَـــمٍّ لفـــرطِ اشـــتياقنا تكـــادُ لـــه أكبادُنـــا تتفطَّـــرُ

وفي نفس المعنى يقول ابن زيدُون[4] :

فنقضـــيَ أوطـــارَ المـــنى مـــن زيـــارةٍ لنـــا كلـــفٌ منـــها بمـــا نتكلَّـــف

وقد يتلبَّس بعض الشّعراء الأندلسيين في مثل هذا الموقف رداءَ العفَّة ، يقول يوسُف الثالث[5] :

كلائـــا عليـــه للعفـــافِ مـــلاءةٌ ومـــن غســـقِ الظَّلمـــاءِ ســـترٌ مُـــدَثَّرُ

ومن ذلك قولُ ابن الزَّقَّاق البلنسي[6] :

وليلٍ طرقـــتُ الخـــدرَ فيـــهِ وللـــدُّجى عُبـــابٌ تـــراهُ بالكواكـــبِ مُزبـــدا
اجـــاذبُ عَطـــفَ المالكيّـــةِ تحتـــهُ وأسحبُ من ضافِي العفـــافِ لـــه بُـــردا

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٤ .

(٢) ومن نخوة العرب وغيرتهم كنايتهم عن حرائر النِّساء بالبيض ، وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الصافات:٤٩)، وقال امرؤ القيس :

وبيضـــةِ خـــدرٍ لا يُـــرام خباؤهـــا تمتعتُ من لهوٍ بـــهـــا غـــير معجـــل

انظر : تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، ص١٤٥ .

(٣) ديوان ابن شهيد ، ص٧٣ .

(٤) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٠ .

(٥) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٨ .

(٦) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص١٣٢ .

نعمتُ بـهـا والليـلُ أسـودُ فـاحمٌ يغازلُ منـها الأسـودَ الفـاحمَ الجَعْـدا
فلـم أرَ أشـهى مـن لماهـا مُدَامـةً ولم أرَ أذكـى مـن تنفُّسِـها نـدَّا

وهي عفَّةٌ محيِّرةٌ في واقع الحال ، فكيف يقول الشَّاعر (وأسحب من ضافي العفاف) ثم يقول (نعمتُ بها) و (لم أرَ أشهى من لماها)؟!!

وقد وجدنا هذه العفَّة قد اتَّخذت عند شاعرٍ آخر منحًى أقوى ، فذكر أنَّه امتنع عن زيارتها ، واقتحام خدرها ، لا خوفاً من أهلها ، وإنَّما حياءً وعفَّة ، يقول ابن الأبَّار[1] :

فأرجعُ أدراجي ولو شئتُ خاض بي لقبَّتِها[2] طِرفي[3] جنابتَها القبَّا[4]
ومـا ذاكَ جبنـاً بـل حيـاءً وعفَّـةً من الحيِّ أن يـدرُوا بمـن شَّـفني حُبَّـا

وقد يرجع بالشَّاعر الأندلسيّ أيضاً عن اقتحام الخدر ، الخوفُ على المحبوبةِ من الارتياع ، إذ يقول ابن زيدون[5] :

إيهـاً فلـولا أن أروعـكِ بالسُّـرى لـدَنًا وسـادٌ أو لطـالَ سـوادُ
لغشيتُ سَجْفكِ في مُـلاءَةِ[6] نثـرةٍ[7] فضـلٌ سـوى أنَّ العطـافَ نجـادُ
لأميـلُ في سُـكْرِ اللَّمـى فيبيـتُ لي مـمَّـا حـوى ذاكَ السِّـوارُ وسِـادَ

إلاَّ أنَّ هذه الفروقات البسيطة عند بعض الشُّعراء في بعض القصائد التي يتناولون فيها تصوير اقتحام الحيِّ وتجاوز الأهوال ، لا تحيدُ بهم في قصائد أُخرى أو بغيرهم ، عن العنصر الأساسيِّ ، وهو تصويرُ قدرتهم على خوض الغمرةِ من أجل المحبوبة ، واقتحام خدرها ، وتجاوز كل الصعوبات

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص٦٨ .
(٢) القبَّة من الخيام ، بيتٌ صغيرٌ مستدير ، اللِّسان ، مادة (قبب) .
(٣) الطِرف : الخيل الكريم العتيق ، اللِّسان : مادة (طرف) .
(٤) القبّ : الفرس الضامر البطن ، اللِّسان : مادة (قبب) .
(٥) ديوان ابن زيدون ، ص٤٥٠ .
(٦) الملاءة : الإزار أو الثوب اللَّين ، اللِّسان : مادة (ملأ) .
(٧) النثرة : الدرع ، اللِّسان : مادة (نثر) .

أو المعوِّقات التي تجعل من ذلك أمراً مستحيلاً ، فهذه القصائد ((فيها من ذكر المغامرة وإظهار الشَّاعر بمظهر العاشق الجريء القويّ ، الذي يقتحم الهول ، ولا يُبالي بالجزع ،وفيها ما يدلُّ على ترفِ بيضةِ الخدر ، وارستقراطيتها ، يدل على ذلك وجود الحراسة حول بيتها الشيء الكثير))[1]، لقد حرص معظم الشُّعراء على وصف ترف المرأة وتنعُّمها ، وجَعْلِهِ عنصراً هامًّا في وصف المحبوبة ، في قصَّةِ الخدر ، وتجاوز الحيِّ والمعشر لأن ((التجربة الغراميَّة لا تتواضع بالأنا ولكنَّها ترفع من شأنه ، ويرفُع من شأنه أكثر أنه عشق امرأةً تستحقُ أن تُعشق)) [2] ، لأنَّه كُلَّما كانت هذه الفتاةُ منَّعمةً ، دلَّ ذلك على فراغها لاهتمامها بنفسها ممَّا يزيدُها جمالاً ، ودلَّ أيضاً على أنَّها ممنَّعة من طبقةٍ عُليا من حرائر النِّساء ، وأنَّ أهلها ذوو سلطةٍ وقدرة ، وكُلَّما كان الوصول إليها صعب المنال ، ويكاد يكون ضرباً من المستحيل ، أصبح الذي يفعل ذلك شجاعاً قويًّا لا يخشى شيئاً ، إنَّها حلقاتٌ من سلسلةٍ متَّصلَةٍ تكادُ تصل بنا إلى ذاتِ المغزى وهو : التغنِّي بالشَّجاعة والقدرة ، والتمدُّحُ بذات الشَّاعر نفسه ، أكثر منه غزلاً بالمحبوبة .

يقول ابن حمديس ذاكراً تنعُّم هذا المرأة[3] :

منعَّمةٌ في الحيِّ نِيطت لصونِها ... جهاراً بحدِّ السَّيفِ عاليةُ الرُّمحِ

ويقول ابن شُهيد في ذلك على نحوٍ أجمل[4] :

---

(١) امرؤ القيس ، شاعر اللهو والغزل والطلل ، دكتور يحيى شامي ، ص٨٠ .

(٢) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط . الأولى ، ٢٠٠١م ، ص٦٧ .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٩٣ .

(٤) ديوان ابن شهيد ، ص٧٣ .

وهي القصيدة التي عارض بها قصيدة امرئ القيس التي أولها (سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا) ديوان امرئ القيس ، ص٩٤ ، وفي هذه القصيدة ، يصف امرؤ القيس تنعُّمها إذ يقول :

من القاصرات الطَّرف لو دبّ محولٌ ... من الذرّ فوق الإتب منها لأثّرا

ديوان امرئ القيس ، ص٩٧ .

يزيِّنُـــها مـــاءُ النَّعـــيمِ وحفَّهـــا من العـــيشِ فينـــانُ الأراكـــةِ أخضـــرُ

وفي وصفِ هذا التنعُّم قال امرؤ القيس قبل ذلك[1] :

وتضحي فتيتُ المســكِ فــوقَ فراشِــها نؤومُ الضُّــحى لم تنتطــقْ عــن تفضُّــلِ

وهو معنى ذكره بعده طفيل الغنوي في قوله[2] :

بـــابطحَ تُلْفيهـــا فُويـــقَ فراشـــها ثقالُ الضُّـــحى لم تنتطـــقْ عـــن تفضُّـــلِ

يغنّـــي الحمـــامُ فوقَهـــا كـــلَّ شـــارقٍ غنـــاءَ السَّـــكارى في عـــريشٍ مظلَّـــلِ

وقد استعان الغنويُّ بالكنديّ في البيت الأوَّل ـ لا عن ضعفٍ وإنما استحسان للمعنى ـ لأنَّه جاء في البيت الثاني بصورةٍ جليلةٍ في وصف هذا التنعُّم ، زاحم بها في جمالها ، قدرةَ امرئ القيس على هذا الوصف .

وقد أسهب الشعراء الأندلسيُّون كسابقيهم في وصف جمال هذه المرأة التي يتجشَّمُون من أجلها الصّعاب ، لأن من قد يهلكُ الشَّاعرُ دون بلوغها لابُدَّ أن تكون فيها صفاتُ المرأةِ المثال التي يهون في سبيلها كلُّ شيء والتي يقتحم من أجلها هـذا الفـارس الشّجـاع الأهـوال ((ولم يكتف الشـعـراء بـرسـم مـلامـح لـ (الجميل) في المرأة فحسب ، وإنما تناولوا تأثير هذا الجمال في الفارس لتكتمل الصّورة الفنيَّةُ وتأخذَ بُعداً دراميًّا مثيراً في النصّ ، إن الفارس ـ في العصر الجاهلي ـ كما صوّره الشّعر حين يلتقي بالمرأةِ الجميلةِ صاحبة الصِّفات السَّابقة يستسلم ، وسوف يكون على استعدادٍ لفعل أيِّ شيء من أجل بلوغ تلك المرأة ، وسنلاحظ أنَّ هذه السِّمة الأخيرة في الفارس ، تكون من أبرز المعطيات التي تجعلُه بنظر القبائل آنذاك جميلاً ومحلَّ احترامٍ وتبجيل))[3].

وينتهي المشهدُ البدويُّ في قصَّة اقتحام الخـدر ، بأن تحين لحـظـةُ الـوداع ،

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٤٤ .

(٢) ديوان طفيل الغنوي ، ص٨٦ .

(٣) بحوث جمالية في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الله العسَّاف ، ص٦٦ .

فتخشى المحبوبة على الشَّاعر أخذةَ القوم ، وتتحسَّرُ لفراقه ، يقول يوسف الثالث[1] :

فقامـــت تجـــرُّ الـــذيلَ فعـــل مولَّـــةٍ ... وعضَّـــت بنانـــاً نـــالَ منـــها التحسُّـــر

حـــذاراً علـــيَّ أن أُصـــابَ وإنَّـــني ... لأقوى على مـــا شـــئتُ منـــهم وأقـــدرُ

ثم يقول[2] :

وجاذبتُهـــا عنـــد الـــوداعِ فخلـــتُني ... هصرتُ بها غُصـــنِ النَّقـــا وهـــو مثمـــرُ

ولم أنـــسَ يـــوم الخيـــفِ منـــا التفاتـــةً ... ولِلـــدَّمعِ في إثـــرِ المطَايـــا تحـــدُّر

ولا يفوتُ الشَّاعرَ الأندلسيَّ ، إمعاناً منه في بداوة الصُّورة في قصَّةِ اقتحام الخدر ، أن يذكر الأماكن النجديَّة والحجازيَّة ، والمطايا ، والنُّوقَ ، والقباب ، وما إلى ذلك ممَّا لاءم هذا المشهد .

فيذكر الخيف (يوم الخيف)[3]، وذي سلم والعقيق[4]:

وانفـــح بـــذي ســـلمٍ نســـيم ظلالـــه ... وإذا مـــررتَ علـــى العقيـــقِ فســـلِّمِ

والجزع (هل لذات الوقفِ بالجزعِ مـوقفَ)[5] ، ونجد (سل الريح عن نجدٍ)[6] ، (يا برقَ نجدٍ)[7] و (اللِّوى)[8] و (ذو العَضا)[9] و (الرَّبع)[10] و(الأباطح)[11] و (الكثيب)[12].

(١،٢،٣) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٨ .

(٤) ديوان ابن الزَّقاق ، ص٢٤٩ .

(٥) ديوان ابن زيدون ، ص٤٧٩ .

(٦) ديوان ابن الزقاق ، ص١٣٣ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص٢٤٩ .

(٨) انظر : ديوان ابن حمديس ، ص٩٣ .

(٩) انظر : ديوان ابن شهيد ، ص٧٣ .

(١٠،١١) انظر : ديوان يوسف الثالث ، ص٥٩ .

(١٢) انظر : ديوان ابن زيدون ، ص٣٨٩ .

ويذكرُ الحيَّ والحمى : (وجئتُ ديارَ الحيَ) [١] ، (وما كلُّ حيّ) [٢] (هبيكِ اغتررت الحيَّ) [٣] (ناشدتك الله اسقيَن رُبى الحمى) [٤] .

ويذكر القباب والهوادج :

(وفي السيّراء الرَّقم وسطَ قبابهم) [٥] .

فما قبل من أهوى طوى البدرَ هـودجٌ ولا ضمَّ ريمَ القفـرِ خـدرٌ مسـجَّفُ [٦]

(للحبِّ في تلك القبابِ مرادُ) [٧] .

والعـيسَ والنُّـوق : (ونـوقٌ براهـا الشَّـوقُ) [٨] ، (وعيسِـيَ أنضـاها السُّـرى والتهجُّر) [٩] .

والخيامَ [١٠] :

ألا ليتَ شِعْرِي هـل يـروعُ خيامَهـا عشـارُ المـذاكي بالقَنَـا المـتحطِّمِ

وريحُ الصَّبا والنعامى :

(وقد نسمت ريحُ النعامى) [١١] ، (ويعبقُ ريَّاها إذا هبَّت الصَّبا) [١٢] .

ولنا أن نتساءل الآن ، لماذا هذه الحبكة في قصَّة الخدر البدويَّة المتوارثة ، ولماذا كان الظفر بالمحبوبة شهيًّا ممتعاً إذا سبقه أهوالٌ ، ومهالك؟

---

(١) ديوان ابن خفاجه ، ص٢٣ .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٣ .

(٣) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٣ .

(٤) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٣ .

(٥،٦) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨٥ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص٤٤٧ .

(٨،٩) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٧ .

(١٠) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٤ .

(١١) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٣ .

(١٢) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص١٣٣ .

لابدَّ أنَّ لذلك في نفس الشَّاعر العربيِّ صدى لانتصار أكبر ، انتصار يشمل الحياة كلَّها ، يُفسِّره أنَّ الصَّعبَ المرغوب ، إذا صادَفَ قلباً شجاعاً قويًّا جريئاً ، وصل إليه ، أو هلك دونه ، وهو ما وجدناه ، وإن كان خفيًّا في هذه القصائد ، إذ نجدُ الشَّاعر بعد وصف الغمرة واقتحام الخدر يؤكِّد هذا المعنى ، يقول ابن زيدون[1] :

يسيرٌ لدى المشتاقِ في جانب الهوى ... نوى غُربةٍ أو مجهلٌ متعسَّفُ
هل الرُّوعُ إلاّ غمرةٌ ثم تنجلي ... أم الهولُ إلاّ غُمَّةٌ سوفُ تكشفُ

وله في قصيدة أخرى[2] :

من كان يجهلُ ما البليدُ فإنَّهُ ... من تطَّبيهِ عن الحظوظِ بلادُ
ففتى الشهامة من إذا أملٌ سَمَا ... نفذتْ به شُورى أو استبدادُ

ويقول ابنُ هانِئ[3] :

ألا إنَّ جِسْماً كان يحملُ همَّتي ... تطاوحَ في شِدْقٍ من الدَّهرِ أضجمِ[4]

وكذلك يوسف الثالث[5] :

وفي طيِّ أستارِ الغيوبِ عجائبٌ ... وتحتَ بنودِ الصَّبرِ نصرٌ مؤزَّرُ

ولابن الزَّقَّاق[6] :

تجيبُ صهيلَ الخيلِ فيها حمائمٌ ... أطارِحُها الشَّوقَ المبرِّح والوجْدا
ألا فاركضُوها أو ذَرُوها فإنَّني ... أبلِّغُ طرفي في طِلاب العُلا الجُهدا

وله أيضاً[7] :

---

(١) ديوان ابن زيدون ، ص٤٨١ .
(٢) المصدر السابق ، ص٤٥٢ .
(٣) ديوان ابن هانئ ، ص٣١٤ .
(٤) الضجم : عوجٌ في الفم ، وميلٌ في الشدق ، اللِّسان : مادة (ضجم) .
(٥) ديوان يوسف الثالث ، ص٥٩ .
(٦) ديوان ابن الزقاق ، ص١٣٣ .
(٧) المصدر السَّابق ، ص٢٣٠ .

فقلتُ أخو الهوى من لم يَرُعْهُ حِمامٌ حَلَّ أو عيشٌ يزولُ
أجلُّ الخوفِ خوفُ الهجر عندي وأيسرُ كلِّ خطبٍ ما يغولُ[1]
وحسبي نجدةً أن قارعتني صروفٌ حالُها أبداً تحولُ
فما أعطيتُ مقوديَ الأعادي وإنِّي بالحروبِ لها كفيلُ

وقوله (أخو الهوى من لم يرعه . . .) استخفافٌ من الشاعر بعظائم الأمور وأنه لا يروعه ما يروع النَّاس ، وقوله (أجلُّ الخوف خوف الهجر عندي . . .) قصد به بيان أنَّ هذا القلب الذي لا يروعه شيء ، يخفقُ بالصبابة ، والجوى ، وأنه يروعه هجرُ من يحبُّ ويهوى ، ولا يروعه حِمامٌ حلَّ أو عيشٌ يزول ، وفي هذا لفتةٌ زكيَّة للمعنى الذي أراد ، وهو وصف شجاعته وجسارته ، ورقّةَ قلبه الممتلئ بالصبوة ، وقد قابل مقابلة خفيَّة رائعة بين (حِمام حلّ ، عيش يزول) .

وقد وجدنا الشاعر يذكر هذه المعاني بعد وصفه اقتحام الخدر ، وتجاوز الأهوال وهو ما يدلنا بالتالي على أن المغزى لا يقتصر فقط على لقاء امرأةٍ أحبَّها ، وتخطَّى الصِّعابَ من أجلها ، وإنَّما قد يتجاوزه إلى معنى قدرته على تخطّي صعابِ الحياة ، ومواجهته كلَّ ما فيها من أهوال ، ليصل إلى هوى النَّفس ومناها ، فأمرُ الشِّعر لا يُفسَّر ـ في مُعظمه ـ على الوجه الظَّاهر فقط ، ولا يعني الشَّاعر بتصوير اقتحام الخدر انتهاك الحرمات والأعراف ((ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن إلحاح بعض الشُّعراء أحياناً ، على تصوير مغامراتهم مع النِّساء ، والمتزوجات منهنَّ خاصَّةً ، وتصوير ما يتعرَّضون له من أخطارٍ في سبيلِ الوصول إليهنَّ لم يكن في معظمه إلا انطلاقاً من افتخارهم بضروب شجاعتهم ، وفتَّوتهم ، واعتزازهم بعنفوان شبابهم ، أكثر منه تعبيراً عن الخروج عن العفّة ، وخرق الأعراف ، وهتك الحرمات)) [2].

---

(١) يغولُ : يُهلك ، اللِّسان : مادة (غول) .

(٢) الإنسان في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الغني أحمد زيتوني ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، الإمارات ، ط . الأولى ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م ، ص٣٦٤ .

فتصوير هذه المغامرة في الشعر لا يعني ـ في مجمله ـ سيطرةً اجتماعيَّة ، ونظرةً للمرأةِ كمغنم وملهى كما يرى بعض النقاد الذي يقول ((هذه النظرة التي ترى المرأة صيداً وغنماً ، وترى الاستمتاع بها لوناً من ألوان السيطرة الاجتماعيَّة ، مثال ما يتضّح في معلّقة امرئ القيس حين يفتخر بأن يطرق خباء المرأة المخدَّرة ثم يستمتع بها غير عجلٍ ولا خائف))[1].

إنَّ الأمر ـ في رأينا ـ لا يعني بالضَّرورة في الشِّعر العربيّ واقعاً يثبتُه الشَّاعرُ كما هو ، وإلاّ لما كان الشِّعرُ شعراً ، إذ كيف ـ لو كان الأمرُ كما وجدنا عند امرئ القيس ، اقتحاماً لخدور النِّساء المتزوجات خاصَّة ـ حقيقةً وواقعاً ((لأنَّ البطر والإعجاب بالنفس والإحساس بالوسامة والملك ، كلُّ ذلك يجعلُ النَّفس غيرَ ثابتةٍ على طبيعتها أو متحصِّنةٍ في عفافها)) [2] فكيف لو كان امرؤ القيس على هذا العهر وعدم الثبات تجعله العربُ ملكاً ، وهم أحرصُ ما يكونون على المرأة ، والخوف عليها ، وحمايتها ، بل إن الخوفَ على نسائهنَّ من السَّبي ، كان أكبر دافعٍ لدى فرسانهم للمخاطرةِ بالنَّفس في سبيلهنَّ ، وليس أدلَّ على ذلك من الشِّعر العربي الذي حفل بكثيرٍ من صور الشَّجاعة والغزل في ترابطٍ بينهما ظاهر ، كما وجدنا عند عنترة ، إذ يذكرُ عبلة في معمان الحرب ، ويتغنّى ببطولاتِه أمامها ((إنَّ صورة ابنة عمِّه عبلة ، كانت تلازمه بشكلٍ دائم ، حتى ليظنَّ المرءُ أنَّه لم يكن يقاتل أو يخوض الصِّعاب والملمَّات إلاَ لأجلها ، فهو يجسِّد في المعلقة مجموعة من المعارك التي خاضها وحده أو مع الجماعة وكان يقدِّم لكلّ معركةٍ منها بذكر عبلة))[3].

والأمر كذلك عند كثيرٍ من الشُّعراء، وأيضاً عند امرئ القيس الذي يقول[4]:

---

(١) قراءة جديدة لشعرنا القديم ، صلاح عبد الصبور ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م ، ص٩٠ .

(٢) المعاني المتجددة في الشّعر الجاهلي ، دراسة تحليل ونقد ، دكتور محمد صادق حسن عبد الله ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م ، ص٣٠٦.

(٣) بحوث جماليّة في الشعر الجاهلي ، دكتور عبد الله العسَّاف ، ص٦٩ .

(٤) ديوان امرئ القيس ، ص١٠٥ .

فـــلا وأبيـــكِ ابنـــةُ العـــامريِّ لا يـــدَّعي القـــومُ أنِّـــي أفِـــرّ

وقد يكون هذا المنحى في الشّعر غير ظاهر ، أو ملمحاً فنيًّا كما وجدنا في معظم صور اقتحام الخدر منذ امرئ القيس حتى الشعر الأندلسيّ ، ((فإذا كانَ الشُّعورُ نحو المرأةِ موصولاً دائماً بمعاني البطولةِ والشَّجاعة ، وكلُّ ما تكتمل به صفاتُ الرُّجوليّةِ في الرجل ، وإذا كان ذلك كلُّه ممَّا يجذب المرأة نحو هذه الخلال في كلّ عصر ، فإنَّ المرأة الجاهليّة بظروف مجتمعها ، وما ابتُليت به من سبيٍ وامتهانٍ بسبب الغاراتِ والحروب ، أكثر اهتماماً وافتتاناً بهذه الخلال في الرجل)) [1] .

فإذا علمنا قيمةَ المرأةِ عند العربي ، ومدى اهتمامِهِ بالمحافظةِ عليها والذَّودِ عنها ، وجدنَا أن المسألة في وصف اقتحام الخدور في الشِّعر بعيدةٌ عن أن تكون واقعاً معيشاً ، ونحنُ لا نُنكِرُ أن يكون في الشِّعر العربي فُحشٌ أو تهتُّكٌ ومجون ، ولكنَّنا حينَ ننظرُ في الشِّعر نظرةً متأنيَّة ونُحسِنُ قراءته ، نجدُ أنَّهُ من غيرِ الصَّحيح - في نظرنا - أن العرب تسمحَّوا مع امرئ القيس لأنَّه من أبناء الطبقة الارستقراطيَّة ولم يستطيعوا التصدِّي له[2].

لأنَّه أوَّلاً : لم يكن يصوِّرُ في شعره هذا إلاّ اقتحاماً لخدور نساءٍ هُنَّ ببناتِ الملوكِ أشبه ، إذاً فقد كان هناك تساوٍ في المستوى لو تجوَّزنا بقبول هذا الرأي ،

وثانياً : ((كان أفرادُ القبيلةِ يتعاونون ويتساندون في الحفاظ على شرف القبيلةِ وحماها لا يدينون بالطَّاعة إلاَّ لرئيس قبيلتهم ، صاحب الشخصيَّة المميَّزة ، المتَّشحةِ بالوقار والهيبة وسدادِ الرأي)) [3].

---

(١) قراءة في الأدب القديم ، دكتور محمد أبو موسى ، ص٢٤٠ .

(٢) انظر : مقدمة القصيدة العربيَّة في العصر الجاهلي ، دكتور حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م ، ص٦٠ .

(٣) الإنسان الأندلسي بين واقعه العربي ، وما طمح إليه . دكتور ضاهر أبو غزالة ، دار المواسم ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م ، ص٤٨ .

ثم إن امرأ القيسِ قد تغنَّى بالعفافِ وطهارة الأثوابِ ومدح بهما[1] .

فالأمرُ الأصحُّ ـ في نظرنا ـ أنَّ هذا التصوير كما قُلنا ليس على الحقيقةِ ، لأنَّ العربَ لا تُملِّك لعصبيَّةٍ أو لشرف حسبٍ فقط .

يقول ابن خلدون ((وإذا كان وجود العصبيَّة فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوتِ والأحساب ، فما ظنُّك بأهل الملك الذي هو غايةٌ لكل مجد ، ونهايةٌ لكل حسب)) [2] ، ويدعم هذا الرأي عندنا ، أنَّ امرأ القيس لم يكن مرغوباً فيه من النِّساء كما ذكر ابن قتيبة [3] ، ولذا فإنَّ وصف امرئ القيس لهذه المغامرات لا يعني بالضرورة الإخبارَ عن تجربةٍ حقيقيَّة وقد ذكر ذلك النُّقاد القدامى ((إذ كان الشِّعر إنما هو قول ، فإذا أجاد فيه القائلُ لم يطالب بالاعتقاد)) [4] .

ونحن ((إذا نظرنا إلى هذا الشِّعر على اعتبار أنَّ المتكلِّم ، إنَّما يخبر فيه صادقاً عمَّا قد اختبر وجرَّبَ في واقع الفعل ، فإنَّنا سننظرُ في غير ذي موضوع ، ونقعُ في مغبَّةَ الخلط بين المقول شعراً ، والحاصل في الواقع فعلاً ، ونسقط في التحقيق ومحاسبتهم على ما لا يستدعي في الحقيقة تحقيقاً ومحاسبة)) [5].

---

(١) يقول امرؤ القيس :

إنَّ بني عوفٍ ابتنوا حسباً ... ضيَّعةُ الدَّخلُلُون إذ غدروا

أدّوا إلى جارهم خفارَته ... ولم يضعْ بالمغيب من نَصُروا

لم يفعلوا فعل آل حنظلة ... إنهم جَيرِ بئسَ ما ائتمروا

لا حيريّ وفي ولا عَدَسٌ ... ولا أست عيرٍ يحكُّها الثفرُ

لكن عويرٌ وفى بذمَّته ... لا عورٌ شأنُهُ ولا قصرُ

ديوان امرئ القيس ، ص١٠٢ .

(٢) مقدمة تاريخ ابن خلدون ، ابن خلدون ، تحقيق : خليل شحادة ، مراجعة : دكتور سهيل زكّار ، دار الفكر ، بيروت ، ط . الأولى ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، ص٩٨ .

(٣) انظر : الشِّعر والشُّعراء . ابن قتيبة ، ص٤٨ .

(٤) نقد الشِّعر ، قدامة بن جعفر ، ص٦٦ .

(٥) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص٦٦ .

وأصدق دليل على ذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٦).

ولم يكن التمثيل منّا بشعر امرئ القيس ورأي النُّقاد فيه ، ونفي أن يكون قوله على الحقيقة ، إلاّ لنصل بذلك إلى أنَّ نظائر هذا الشعر الذي اختطَّ خطَّهُ وابتدعه ـ فيما نعلم ـ امرؤ القيس ، يجري في تفسيره هذا المجرى ، بل هو أدلُّ على هذا المعنى في الشِّعر الأندلسيّ من سابقه ، لأنَّ التصوير البدويَّ الذي لجأ إليه الشَّاعرُ الأندلسيُّ لا يعني بالضرورة ، وجود جميع هذه العناصر الممعنةِ في البداوة في الأندلس ؛ المرأة الممنَّعة ، الخيام المنصوبة ، القباب المضروبة ، والفرسان المفدّون لها ، واقتحامُ الخدرِ في ليلٍ يصحب فيه الشَّاعرُ سيفه ونفسه الشجاعة ... إلى آخره . كلُّ ذلك ممَّا يحشُده الشَّاعرُ في هذه الصورةِ البدويَّة ، طريقةٌ فنيَّةٌ للدلالة على ما وجدنا امرأ القيس أراده ـ في رأينا ـ وهو أنَّ الشَّاعر يستطيعُ أن يصل إلى ما يشاء إذا رغب فيه ، وأقوى سلاح يحمله هو قلبه الشجاع ، وعزمُه الأكيد ، وهنا فإنَّ الشِّعر ((يرتقي إلى حيّزٍ آخر من الواقع هو حيِّز الأقاويلِ الشعريَّة ، وقد استحالت إلى عالمٍ يشدُّه نظامٌ آخر ، غيرُ نظام الصدق والكذب ، أو نظام الخير والشرّ))[1].

لذا وجدنا أمر هذا الشِّعر ـ في معظمه ـ تغنٌّ من الشَّاعر بنفسه وجسارته ، فخوضُ الأهوالِ والمعشر للوصول إلى خدر المحبوبة ، طريقةٌ في الشِّعر تدلُّ على الاقتدار على الأمور المهولةِ الصعبة ، وتصويرٌ لرغبة النفس الإنسانيّةِ في ما وجدته جميلاً منيعاً بعيداً ، وتصويرٌ للقدرةِ على الوصول إلى ما أرادت ، لو اتَّشحت هذه النفسُ بالعزم ، والإرادة ، والقوَّة ، والجسارة .

* * *

(١) جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير ، دكتور حسين الواد ، ص٧٤ .